وعد السجين

وقف الزوجان يتبادلان نظرة تفيض لهفة ولوعة ·· بينهما حائل قاسى ·· والحائل قضبان السـجن ·· كان الزوج خلف القضبان يقف منذ وقت طويل ·· ينظر الى الخارج ·· كأنه على وعد بالقاء ·· وجهه قطعة من الدهشة والذهـول ·· بنظرته النفاذة ينظر فى عينى زوجته محاولا أن يسبر غورها ·· فالزيارة ليست فى موعدها ·· وقد قطعت الطريق جريا فأنفاسها لاهثة ·· لعلها فى موقف عسير ·· لا تقدر على مواجهته والوقوف له ·· طوال المدة كانت تخفى لواعجها ·· تغتصب ابتسامة تضعها على شفتيها لتبدو سعيدة ·· كلماتها تعبر عن التفاؤل واليسر لا تتواءم مع شـحوبها وهزالها ·· هذه المرة فشـلت أن تخفى حدة موقفها ·· ولا أن تكبح دموعها ·· لا بد فى الأمـر كارثة ·· والمصيبة فادحة ·

يضغط على القضبان فى عصبية ·· قلبه قطعة ثلج توزع البرودة فى أعضائه ·· وتتركز فى أطرافه التى ترتعش ·· ولسانه

قد شـل عن السؤال .. أخفى وجهه متحاشيا نظراتها .. أو أنه يرهب وقع الخبر .. كيف يهرب .. وما جاءت على عجل الا لتبثه نفس الخبر .. ولولا ثقله ما جاءت .. ولما تسمرت هكذا .. وسيقع عليه النبأ بقدر ثقله .. مهما قست ظروفه .. فهـو الرجل .. هو حامل المسئولية رغم وقفته خلف القضبان .. ويجب أن يتلقى الخبر على علته .. وأيا كان .. فالرجال لا يخفـون وجوههم من لسـع النيران .. بل عليهم أن ينفذوا منهـا .. وليحترقوا بلهيبها .

رفع السجين رأسه المتثاقل .. فى عينيها آثار السـهر والشجون .. كانتا ساحرتين فاتنتين .. لو فى مقدرتى لعانقتها .. ولأذيب كل آلامها .. ولأزيل من عينيها آثار الزمن .. أنفاسها ها هى تلهب وجهـه .. بين جسـديهما شـعر .. وليس ليهما الا التناجى رهبا وهمسا .. حرم عليهما العناق والالتحام .. وستظل أعضاؤهما فى شوق حتى يحين يوم الحـرية .. بعيدا عن هذه القضبان .

لم يمض العام على زواجهما .. فرقهما حكم القاضى بالسجن .. كم كانت سعادته حين أخبرته بحملها .. شعر بنشوة الرجولة .. غدا ستؤتى ثمارها وليدا يملأ البيت فرحا ومرحا .. ترددت السعادة فى قلبيهما .. وتألقت فى عينيهما .. ستكون أسرة .. الأسرة تعنى المسئولية .. الوليد يعنى عبء آخر .. لا يجب أن تختفى السعادة .. والصغير يجب أن يعيش فى رغد .. والمستقبل كبير .. شهور وسنين وسـنين .. والدخل بالكاد وشبح الدين بالمرصـاد .. الحاجة ساكنة معهم .. تعيش بينهم .. يجب أن ترحل الفاقة الى الأبد بأى وسيلة .. والغاية تبرر الوسيلة .. الغد أول الشهر موعد تسليم المرتبات .. الخزانة حاشدة برزم الأوراق .. المستقبل كبير .. شهور وسنين وسنين .. الموظفون

والعمال كثيرون .. سيعيشون شهرا من القلق .. شهرا واحدا لقاء عمر السعادة .. هو الآن وحده .. يستطيع أن يغلق الباب لينفرد برزم من الأوراق النقدية .. النفس قوية مسيطرة .. امارة .. امتدت يد الشيطان تجمع الرزم فى الحقيبة العتيقة .. فى الغد سيحمل حقيبة لا تقل عن حقيبة المدير العـام .. والوليد سيعيش فى بحبوحة .. وداعا للعوز والفقر والحاجة .. خرج من المكان .. الحقيبة ثقيلة .. والبسمة واسعة .. وبالجسد خدر لذيذ .. الا أن عينان ترقبانه .. لا يدرى بهما .. بدأت الرقابة بالريبة .. فالحركات قلقة والنظرات زائغة على غير العادة .. ومضت أيام قليلة ليساق الى هذا المكان .. وقد فرت الأحـلام بلا عودة .. مضى ثلاث سنوات .. بقى مثلها .. الأيام طويلة .. ثقيلة .. كئيبة .. لا مفر من قضاء المدة .. فى السجن ظلام نفس وذل وهوان .. الحرية بيضاء زاهية .. المستقبل غامض مجهول .. المهم الحصول على الحرية .. شوكة الضمير لها وخز مؤلم .. لا عودة الى هذه البقعة .. ما جدوى الندم .. مسكينة زوجته .. قبلته حرا .. وتتعذب من أجله سجينا .. وفية له فى أسره وحريته .. ولا جديد الا الحزن وصراع مرير مع الأيام .. كم اشـتاق لهما .. لعن الله الغاية والوسـيلة .. أيبادرها بالسؤال ؟ .. قطرات العرق تتصبب من جبينها .. فمها فاغر لا يقول شيئا .. لسان حالها يتكلم :

ـ ليتنى ما أتيت .. فماذا يصنع الليث السجين ؟ .. الا أن أزيد مرارته .. وأثقل على كاهله المتداعى .. ليتنى ما سعيت اليه .. لمحت احمرار عينيه ..

ـ انه المكتوب لابد أن يقرأه .. فلمن أسعى .. لمن .. لمن ؟ .. لا حيلة .. يجب أن أخبره .. هو الوحيد الذى يهمـه أن يعرف ...

ما زالت جامدة .. قرأت فى عينيه الشكوك .. الشكوك أدهى وأمر .. لينزل عليه الخبر نزول الصاعقة أرحم من نظراته .. كفانى عذاب القاء الخبر على أشل .. رأته كمن يعانى سكرات الموت انتزعت الكلام قائلة :

ابنتك تحتضر ..

انفغرت عيناه فزعا وجزعا .. على جبهته كثرت الخطوط وغارت .. غاص قلبه ووهنت دقاته .. ارتجفت أصابعه فدعت القضبان وارتخى جسده .. استند على القضبان .. نظر الى زوجته ثم عاد الى السور الحديدى .. عينا الحارس ترقبانهما .. آذناه مفتوحتان تلتقط كلمتى الزوجة .. لم تحتمل الزوجة الموقف .. تذكرت ابنتها فغادرت المكان منحنية الظهر .. تولول فى أعماقها .. شيعها الحارس بعينين مشفقتين .. دق قلب الحارس بعنف .. مشى بخطوات اجتهد أن تكون ثابتة .. أصبح فى محاذاة السجين .. مر بجانبه .. ابتعد قليلا .. جعل يسير على غير هدى وفكرة تتخبط فى عقله .. والسجين ما زال ينظر فى الطريق .. ينظر بعينيه الدمويتين الى الشمس الغاربة .. الفكرة تتربع فى رأس الحارس .. تذكر حاله .. أخال بأنها زوجته وأن الطفلة التى تموت طفلته .. أصيب بعزم فجائى .. أصبح فى محاذاته ثانية .. تلفت حوله .. ثم هتف هامسا :

ـ ألم تنجب غيرها ؟

لم ينتفض السجين هذه المرة .. بل أودع الحارس بنظرة عجب واشفاق .. ثم هز رأسه نافيا ..

عندئذ قال الحارس فى ثقة :

ـ لا تتزحزح من مكانك ..

الصـــور المقبضـــة تتراءى للحارس ·· غربت الشمس ونام المسجونين ·· وكانت احدى الزنزانات شاغرة ·· التقى الحارس والســجين لحظات ·· مشى الحارس وتبعه الســجين ·· فوجئ السجين بالباب الصغير مفتوحا ·· أشار له الحارس بالمضى ·· خرج ·· كاد أن يعـــود ·· كاد أن يبصق عليه الحارس ·· **جرى السجين كالفأر المذعور بعد أن همس الحارس فى رجولة نادرة :**

ـ موعدنا قبيل الفجر ··

انفلت السجين يعدو فى حرية ·· ليلحق بزوجته وابنته ·· طرق باب مسكنه ·· بغتت الزوجة المنكفئة على ابنتها التى تصارع الموت ·· لم تصدق سمعها ·· فمن سيطرق بابها ؟ ! ·· ومن ذا الذى يهمه أمرها ·· عاود طرقاته الخافتة ·· دق قلب الزوجة ·· من الزائر يا ترى ؟ ·· لعلها النجدة ! ·· فتحت الباب ·· شهقت حين رأته ·· كادت أن تسقط من المفاجأة ·· اجتذبها حيث فراش ابنته ·· انكفأ يقبلها ويتمسح بها ·· ويبكى ·· فتحت الطفلة عينيها ·· جعلت تتفرس فى ملامحه محاولة أن تتذكره ·· أنهك المرض ذاكرتها ·· لم تتذكر ·· ولكنها ارتاحت له ·· جرى الدم فى وجهها الشاحب ·· التقت عينا الأب والأم فى نظرة أمل ·· تناقل بصر الطفلة بين أمها وأبيها ·· نسيت الأم كل سنين الارهاق ·· نسى الأب سنين السجن والعذاب ·· حامت السعادة دقائق وكانت قد هجرتهم ·· تفوهت الطفلة لأول مرة منـذ أن هاجمها المرض :

ـ أريد عروسة ·· كل الأولاد معهم عرائسهم الا أنا ··

رفرف قلب الأب سعادة بهذا الطلب ·· ولكن يديه خاويتان ·· لا يملك حتى حريته مثل الكلب العقور الحبيس ·· طـأطـأ

رأسه فى لوعة .. لم تطق الزوجة .. خلعت قرطها كل ما لها .. هزته وقدمته له .. أخذه فى صمت .. والصمت خير معبر .. غادر المكان بينما عينيه على ابنته التى ابتسمت له .

غاب الزوج .. اشتدت لهفة الزوجة عليه .. أصابها الجزع .. بكت .. تأثرت الصغيرة فبكت معها .. بهت وجه الصغيرة فاكتأبت الأم .. عاودها المرض .. كأنما يرقد تحت وسادتها .. أو أنه انتظر خروج الأب رحمة به ..

ابتاع الأب عروسة ابنته .. وكانت حيرته .. هل يسعى لاستدعاء طبيب ؟ .. وما ذنب الحارس اذا افتضح أمره .. نزع من نفسه هذه الفكرة .. عدا الى مسكنه .. اقتربت يده لتطرق البـاب .. جـاء الى سمعه أنين مكتوم .. دق قلبه مسرعا .. طرق الباب .. دخل مهرولا .. تسمر أمام فراش ابنته .. نظر الى صدرها الساكن .. ثم الى زوجته .. سألها بعينيه .. هزت الزوجة رأسها بالايجاب .. تنقل بصره بين وجه ابنته .. ووجه زوجته .. ووجه العروسة الذى كان يحمل ابتسامة .. زالت ابتسامتها .. غشى الحنان قلب الجماد .. ان كان للجماد قلب .. جمدت عيناه على ابنته المسجية ..

– لولا سجنى .. لما ماتت ابنتى .. ما ذنبها ليفتك بها المرض .. ماذا جنت ليرتسم الموت على محياها الطاهر .. وتموت الابتسامة من شفتى الدمية .. لمعت عيناه لمعانا غريبا .

– ما أحلى الحرية .. وماأعذبها ! .. ليتنى ما تنسمت هواءها .. ليتنى ما أطعت الحارس فلا أرى جثمان ابنتى .. ليتنى ما جئت .. لو أفر من السجن .. ومن نفسى .. ومن الحياة .. الموت أرحم .. بلى سـيريحنى ويهدىء من روعى .. لكنه سيعذب غيرى .. فما ذنب زوجتى التى تعيش على أمل حريتى ..

وبعد أن أفجعها الموت فى أعز ما لديها ·· فهى الابنة ·· وهى السلوى ·· وهى الوصال بيننا ·· وذكراهـــا فى ســجنى ·· وما ذنب الحارس الذى يعيش الآن على أمل عودتى ··

فى السجن كل العيون حارسة ·· فقط عينان يفعمهما القلق ·· كل الآذان مرهفة الى حـــركات المسجونين ·· فقط أذنان تتلمسان صوت أقدام السجين ·· تتمنى أن يعود ··

انساب الشعاع الأول من النهار ·· وفى هذه اللحظة كان آدمى يدخل من الباب الصغير ·· عندما نطق الحارس بالشهادتين ·· والتقت عيناهما ·· فهم الحارس ما وراء دموع السجين ·· ومع ذلك فقد تبادلا نظرة امتنان ·